الربيع الحزين

قصة بقلم محمد صويلح

الى اعوام الجفاف .. تحية وداع من اول قطرة مطر واخر قصة حزن.

ـ الى الغرب ..

طوال اربعة ايام لم يغير « بدر » هذه الكلمة ، كان يقولها في نفسه سرا ، ولاغنامه المتعبة في صوت مرتفع حينا ، ولكلبه ذي اللون الاسود احيانا اخرى ، فهدفه ان يصل نقطة معينة في الغرب ، وهذه البقعة تعني عنده نهاية الشقاء .. او نهاية هذا المسير الطويل ، فقد كان يجر رجليه ويجبرهما على التقدم نحو الغرب جبرا ، فهو كالقائد المهزوم المطارد ، ولكن عدو « بدر » غير مرئي ، وجنده لايستطيعون ان يفهموا غاية هذا المسير ولا نهايته ، فهم مستسلمون له بدون تفكير تسيرهم العصا ويقودهم الخوف . وركض « بدر » الى مقدمة القطيع مرتاعاوحدثه قلبه بان ماكان يكرهه قد وقع وذلك عندما توقف رنين الجرس المعلق في عنق كبشه « سيار » الذي كان يقود القطيع .

كان الكلب قد وقف عند رأس الكبش الذي وقع ارضا ، واخذ يفحص الارض برجليه ، فانحنى « بدر » على قائد قطيعه المحتضر ، متحيرا كيف يخلصه من قبضة الموت ، والكبش يشخر ويصطك قرناه بالارض ، فصب الراعي التعس قليلا من ماء مطرته في فم الكبش ، وكان يعرف ان عمله هذا غير ذي جدوى ، ولكنه اراد الا يحرم الكبش الذي عاونه مدة طويلة في قيادة القطيع من الماء ، ماء مطرته الخاص دلالة على حبه واكباره له. واخذ الحيوان المسكين يهدأ ، ولاول مرة شعر « بدر » بان دموعا حارة تلامس صفحة وجهه ، فقد هلك ثلثا غنمه حتى هذه الساعة ، تموت فرادى وعشرات فتحمل كل ذلك برباطة جأشه المعهودة ، ولكنه يجد هذه المرة ان الدموع التي جرت من عينيه ذات يوم حين بلغه نبأ مقتل اخيه في البادية ، هي نفس الدموع التي بكى كبشه الضائع بها ، فتوقف عن المسير رغم ان الفجر بعيد ، فجمع اغنامه حول جثة الكبش ، فقد اراد ان يحميه الى الصباح من الضباع وبنات آوى وحيوانات البادية التي اتخمت لحما ، فتكومت الاغنام الباقية من القطيع حول الجثة ،وجاءه كلبه وهو يصوت اصواتا مقطعة حزينة كانه يريد تعزية « بدر » فاخذ يربت على عنقه برفق كانه يريد ان يقول لكلبه : لم يبق من ثالوث اركان قيادة القطيع سواي وسواك . دفع بدر بالكلب الى الناحية الاخرى من كومة الاغنام ، بينما التف هو بعباءته وتوسد بندقيته التي لم يبق فيها غير طلقة واحدة ، ورمى السماء بنظرة ، حيث تطوف على مقربة من القمر غيوم سوداء داكنة ، تشعر الرائي غير الخبير انها سحب ماطرة، ولكن الراعي عرف لها اسما اطلقه عليها عندما اخلفت ظنه في بداية العام ، حيث كان يرقبها تمر واحدة اثر اخرى دون ان تجود على السهب الظمأن بقطرة واحدة بل دون ان ترعد او تبرق ، فسماها السحب الكاذبات .

ـ ايتها الكواذب. لا اريد منكن مطرا بعد اليوم.. فاذهبن ـ ان اردتن الى جهنم ، لم يكن بدر ليستطيع ان يقول هذا الكلام في اوائل الخريف، فقد كان منظر الغيوم القادمة من الغرب جميلا اذ يراها تتدافع متتابعة، ولكنها كانت تمر مر اللئام دون ان تقهقه برعدها فوق المراعي الغرثى ، واستمرت السماء شبه صاحية طوال الشتاء ، واخذ الرعاة في البادية يجولون من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها يجوبون كل المراعي التي كانوا يعرفون فيها الخصب فلا يجدون من العشيب مايكفي لملء بطن نعجة واحدة ، فهجروا البادية ومراعيهم القديمة الى جوار القرى في الارياف ، والى شواطىء السواقي والترع والانهار ، وبقي بدر في البادية مصرا على اعتقاده بانهم رعاة فاشلون لايعرفون المراعي السرية في بطون الادية والهضاب ، وكان يأمل ان تجود السماء فسيكفي ثلاث او اربع مطرات لتجعل من الربيع رسول انقاذ لهذه الحيوانات من جوعها وفنائها . ولكنه لم يعد يهتم الان ، وفي هذه الساعة بالذات ، بالمطر بعد ان مر الربيع ولم تتعطر البرية بزهرة واحدة ، ولم يسمع ثغاء الاغنام وهي تعود من المراعي شبعى تخف الى لقيا صغارها فتشبعها حليبا ، كما لم يسمع صوت المماخض تمخضها النساء في الصباح الباكر . ورأى مايسميه الناس ـ لاول مرة ـ قحطا وجدبا ، وعرف ان الربيع لن ينتج خيرا بعد ان اوشك ان ينتهي ، وندم اذ وثق بمقدرته على تتبع المراعي التي كان مشهورا بين زملائه في البادية بالعثور عليها ، فقد كان منذ ان بلغ السابعة راعيا مجيدا ، لا يبعد كثيرا عن بيت الشعر الاسود حتى يعود بالاغنام وقد اكتفت شبعا . بل ان والد بدر نفسه كان يعترف للرجال بان ابنه الصغير يجيد الرعي خيرا منه وكثيرا ما كانت تنشب معارك سباب بين أبوي بدر ، فالام تنهر الاب وتريد منه ان يكف عن اطراء مهارة ولده في الرعي فذاك قد يكون سببا في اصابته بالعين الحاسدة التي قد تفقده هذه البراعة ، فقد سمعت ابنها مرات عديدة يقول لها انه يسمع نداء الارض الخصيبة فيسوق غنمه فيقع دائما على مرعى ممرع يزهو بعشبه الاخضر او الكلأ الطري فاذا استوضحته الام عن كيفية هذا النداء تلعثم الطفل ولكنه يتخلص بقوله انه يسمع ما يشبه ثغاء اغنام غير مرئية فيسوق غنمه باتجاه الاصوات فلا تنقطع عن اذنيه الا اذا رأى اغنامه قد احنت رؤوسها مجتهدة في قضم العشب شاكرة لراعيها الطيب براعته في حسن اختيار المرعى . وظل بدر على اعتقاده هذا بان المراعي الخصيبة تناديه حتى بعد وفاة والديه ، وزواجه وانجابه ، فهو يحدس بمواقع المراعي الجيدة فيقصدها فلا يجد الا ما يرضيه ويرضي غنمه ونعاجه ، الا في هذا الربيع فقد كانت الارض صماء ، والمراعي بكماء ، ولم يعد يسمع نداء المراعي ، ولا الثغاء الخفي ، بل كان يسمع الثغاء الحقيقي تثغوه نعاجه العطشى الجائعة ، فندم اذ لم يطع نصيحة زوجه واصدقائه بهجر البادية والالتجاء الى الريف والقرى ، او بيع هذه الاغنام تخلصا منها ومن علفها . ولكنه ندم بعد فوات الاوان وبعد ان اخذ الموت يمد يده الى اغنامه فيلوي اعناقها يوما بعد يوم .

ـ الى الغرب .. الغرب هو ما اريده .. فاصبرن وامهلنني قليلا فسأكون عند حسن ظنكن بي دوما .. سابلغكن المرعى واقسم على ذلك بقبر والدي وتربته .

وكان يعرف ان المرعى في هذه المرة هو شطآن الفرات ، فقد عرف بداهة ان كل هذه الارض التي يعرفها الرعاة ان خلت من المرعى لفقدان الماء فان العشب لن ينعدم البتة على شواطىء الفرات المتدفق المياه . فثمة سيجد الماء والمرعى .. ولذلك ترك زوجه وولديه عند بئر « سعوان » وقد قطع اربع ليال مشيا فمر على اربع آبار فلم يمتح منها الا مكدر المياه التي لا تروي ، وغدا سيمر على بئر « مسعود »

وبعدها سيدرك القرى ، ولن يعدم فيها الماء ، حتى يدرك الفرات . ولذلك فضل السير ليلا لرطوبته لكيلا يجهد الغنم فيحيجها الى شرب الماء الكثير ، والتوقف نهارا حتى تستجم وتقتات ما تجد من بقايا أكلاء او جذور يابسة . واخذ « بدر » يفكر بهدوء في علة الكارثة التي حلت به ، أسببها انه راهن الرعاة على ان يجمل من اغنامه الفا ؟ فنضبت لذلك السماء فحرمته المطر ام انه خالف عن امر زوجه حينما اصطحب معه ذات يوم كلبه الاسود ـ وكان جروا ـ اذ وجده في المرعى فحذرته من اقتنائه بسبب لونه الإسود ، وعللت له سبب طرح اصحابه لـه بانهم تشاءموا من لونه فتركوه للموت في البرية ، ولم تنس ان تهمس في اذنـه :

ـ انه جني ، الا تعرف ان الجن يستحيلون كلابا سوداء ؟

فيجيب بدر ، وقد آثر الا يترك الجرو فهو يلزمه كحارس لاغنامه :

ـ لقد سمعت كثيرا عن الجن الذين يتزيون بزي الكلاب السوداء ، ولكنني اعتقد ان هذا جرو حقيقي ولقد خلصته بنفسي من الموت .

ـ لا يغرنك تظاهره بالموت ، فان للجان آلافا من الحيل .

وكان بدر يسمع نباح كلبه الاسود في طرف الكومة الصغيرة من الغنم ، فهو الحيوان الوحيد الذي لا يشكو جوعا بعد ان يملأ جوفه من لحم النعاج المسكينة . واستولت هذه الفكرة على بدر واخذ يفكر جديا في هذه المسالة ، فربما كان هذا الاسود جنيا ماكرا انزل به كل هذه الكوارث ليظفر باللحم دون جهد او كد . وما يدريه بان الاسود قد اغراه بحبه حتى يستبقيه ، ويمضي كلام الذين نصحوه بطرد علامة الشؤم والهلاك ؟ واراد ان يتخلص من كل هذه الافكار فرفع نظره الى السماء ، الى السحب الكاذبات ، وراعه ان رأى وجه القمر محمرا كقطعة نحاس محماة ، وجه مربد محتقن ، كانه كان يعاني آلاما واحزانا هو الاخر . وعرف ان القمر سيصير بعد ثلاثة ايام « بدرا » تاما ، وسيتوسط كبد السماء محاطا بهالته البيضاء المعهودة في ليالي التمام . وتذكر سبب تسميته باسم القمر ، وذلك لانه ولد في ليلة التمام وكان القمر بدرا كاملا فاسماه ابوه بدرا تيمنا ، ولكن قال والده خاب عندما انبأته عرافة من الفجر ـ وكان ذلك وهو في نحو السادسة من عمره ـ بان قائلا ما سيقتل ابنه ذات ليلة عندما يصير القمر بدرا كاملا كما كان عند ساعة ميلاده . ولكن الوالد تظاهر بالانكار وانهم الفجرية بالكذب لانه قلل عطاءها في ذلك العام .

ـ كفى سيرا أيتها المتعبات ، وكفاني سيرا انا الاخر : انظرن ، فذلك ما وعدتكن به . وارتمى بدر على الهضبة الندية ، واخذ يمرغ وجهه على الارض واصابعه تجوس خلال العشب الطويل . ولاحت لعينيه اشعة القمر الذي توسط السماء بدرا تاما وهي تنعكس على مياه النهر فضية ذهبية لماعة . ونظر الى قطيعه الذي لم يصطحب معه كل حيانه قطيعا اصغر منه ، فهو ثلاث نعاج استعصت على الموت والسير الطويل والجوع والعطش . كانت الهالة في تلك اللحظة تحيط بالقمر بيضاء فضية فعاد بذاكرته الى عهد الطفولة حينما كان ينام في العراء تحت النجوم على فراش امه فيسالها عن النجوم فتخبره عن حكاياها واسرارها، وهو يعرف منها ان الهالة هي دعوة القمر للنجوم بمناسبة اكتماله وهي المائدة التي يتناول عليها الضيوف طعامهم بعد ان ينام الناس ويغفل الرعاة . ولم يدر كيف قفزت الى ذهنه قصة النبوءة التي تنبأتها العرافة بمقتله يوم تمام القمر ، فانتفض لهذا الخاطر ، والتف بعباءته بسبب الرطوبة والرياح الندية ، اذ كان يشعر بحمى تلهب جسمه ، ولكنه دهش اذ رأى كلبه وقد جلس على مؤخرته ورفع راسه نحو السماء باتجاه البدر يعوي عواء غريبا ، طويلا ومثيرا . فايقن بدر بان الكلب يعوي مستعينا بالقمر لكي يعيده الى حالته الاولى فينقلب جنيا فينقض عليه ويقتله . ولكنه لم يهتم كثيرا لذلك فوضع بندقيته تحت راسه وحاول ان ينام ولو قليلا ليريح جسمه المكدود المزيض ، وانتابته غفوة ، فوجد نفسه في مدينة كبيرة في احد ميادينها واذا هو ميدان فسيح فراعه ان رآه مليئا بالغنم ، وبالرعاة من رفاقه وكلهم يبيعون اغنامهم لرجال من اهل المدينة، ورأى قطيعه كله برؤوسه الثلاثمائة قد تجمعت ورأى كبشه « سيار » يتقدمها يرن جرسه المعلق في رقبته رنته العذبة الحبيبة الى قلبه ، فنالت نعاجه اعجاب التجار فتقدموا نحوه يريدون شراء غنمه ايضا ولكنه صدهم جميعا رغم انهم دفعوا له اثمانا باهظة تزيد على كل الذي دفعوه لاصحابه . ولكنه ظل على عناده واصراره وعجب ان رأى غنمه تتضاءل وتتناقص حتى صارت ثلاثة ثم برز فجاة من وسطها كلبه الاسود فانقلب الى رجل في هيئة تاجر غنم ، وتقدم من بدر مقهقها قائلا :

ـ ألم اقل لك بع هذه الاغنام ايها الاحمق ! فلماذا لم تبعها ايها الشقي؟ ولكنني ـ جزاء عنادك وحمقك ـ سأحولك انت الى نعجة وسوف آخذك الى المسلخ واذبحك ، وسرعان ما وجد نفسه قد انقلب نعجة في رقبتها حبل يقودها الكلب الذي صار رجلا حتى بلغ دكان جزار فهرول الجزار نحوه فاهوى بساطور ضخم كان في يده على رأس بدر .

فصرخ بدر فزعا ليتجنب الضربة ، فافاق من غفوته مذعورا فوجد قطرات العرق تتصبب من جسده كله ورأى كلبه لا يزال يعوي عواءه الغريب المثير رافعا راسه باتجاه القمر ، وخيل اليه انه قد استطال وكبر ، وغدا الى شكل الآدمي اقرب ، فاسرع باخراج البندقية ورماه بالطلقة الوحيدة الباقية فكف على اثرها الكلب عن العواء وارتمى على الارض . ورددت صدى الطلقة الهضاب التي تجاور الفرات ، وارتاعت لذلك الاغنام المجهدة فهرولت مبتعدة بينما كان النهر يتابع جريانه هادئا غير حافل بما يجري حوله مواصلا رحلته الخالدة على مر الدهور ..

جرابلس — محمد حموية

من منشورات دار الاداب

دواوين نزار قباني

زينة لكل مكتبة

	الثمن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣